

واشنطن بوست: حملة قمع ميدان رابعة الدامية غيرت مصر إلى الأبد



استعرضت صحيفة واشنطن بوست في تقرير أعدته مراسلها سيوبان أوجرادي ذكريات ناشطين وشهود عيان لفض قوات الأمن المصرية اعتصام رابعة قبل عشر سنوات.

في ذاكرة الناجين منها، لا يبدو أن عقداً من الزمان مرَّ على الحملة القمعية التي شنتها قوات الأمن على المعتصمين في ميدان رابعة. لا تزال أصوات وروائح ذلك اليوم تلاحقهم، عندما كان الموت يعبث في كل مكان... لم تعد حياتهم - وبلدهم - كما كانت، بهذه الكلمات تستهل الصحيفة الأمريكية تقريرها في الذكرى العاشرة لمذبحة رابعة.

أكبر عملية قتل في التاريخ الحديث

تقول الصحيفة إن قوات الأمن المصرية استخدمت الذخيرة الحية لتفريق الاعتصامات المناهضة للحكومة في القاهرة في 14 أغسطس 2013. وقالت جماعات حقوقية إن أكثر من 800 شخص لقوا حتفهم في واحدة من أكبر عمليات قتل المتظاهرين في أي مكان في التاريخ الحديث. وقدرت الحكومة عدد القتلى بـ 624. وقد لا يُعرف الرقم الدقيق أبداً.

واعتقل المئات من المتظاهرين وسجنوا، وحُكم على بعضهم فيما بعد بالإعدام. وفر كثيرون آخرون من البلاد ولم يعودوا أبداً.

وجاءت حملة القمع العنيفة بعد ستة أسابيع من استيلاء الجنرال عبد الفتاح السيسي على السلطة من الرئيس محمد مرسي من قيادات جماعة الإخوان المسلمين. انتُخب مرسي بعد عام من ثورة مصر 2011، التي أجبرت المستبد حسني مبارك على التنحي عن السلطة وحفزت الأمل في التغيير الديمقراطي في جميع أنحاء الشرق الأوسط.

ووفقاً للصحيفة، فقد شارك في الاعتصامات الجماهيرية السلمية للاحتجاج على الإطاحة بمرسي آلاف المصريين - معظمهم ينتمون إلى جماعة الإخوان المسلمين ويدعمون مرسي. وعارض آخرون ببساطة استيلاء الجيش على السلطة. وخيموا لأسابيع، وأقاموا حواجز بدائية، وجلب بعضهم أسلحة -

خوفاً من هجوم من قوات الأمن.

نقطة تحول

كان التجمع الأكبر للمعتصمين في ميدان رابعة. وقالت الحكومة إن هناك إرهابيين وفاعلين خطيرين آخرين في الحشد. وفي عام 2019، قال السيسي، الذي أصبح رئيساً في عام 2014، لشبكة سي بي إس نيوز: «كان هناك الآلاف من المسلحين في الاعتصام لأكثر من 40 يوماً. لقد حاولنا كل الوسائل السلمية لتفريقهم».

ووجدت التحقيقات التي أجرتها جماعات حقوقية أن معظم المتظاهرين كانوا عرّّل.

نقطة تحول

وتلقت الصحيفة إلى أن القتل الجماعي وانعدام العدالة كانا نقطة تحول رئيسة لمصر - تعزيز سيطرة الجيش على السلطة واستعداده لاستخدام القوة المميّنة للحفاظ عليها.

ما حدث في ميدان رابعة أدى إلى انقسام العائلات والأصدقاء وقلب الحياة وعمق الانقسامات السياسية في البلاد. وبعد كل هذه السنوات، لا يزال من الصعب مناقشة تلك الأحداث بصراحة.

تحدثت صحيفة واشنطن بوست إلى خمسة مصريين كانوا حضوراً في ذلك اليوم، أو ممن تغيرت حياتهم بسبب ما حدث بعد ذلك.

أحمد سميح، 44 عاماً، ناشط سابق في مجال حقوق الإنسان

قبل 14 أغسطس، تلقى الناشط المصري في مجال حقوق الإنسان أحمد سميح دعوة لحضور اجتماع مغلق في وزارة الداخلية. في النهاية، قال، «لدي شعور واضح جداً بأن الفض سيكون عنيفاً».

وقال إن قوات الأمن قدرت حوالي 3000 ضحية بين الجانبين - وهي أرقام شاركها مع الصحفيين في ذلك الوقت.

وقال إن الانقسامات حول مستقبل مصر كانت شديدة للغاية والأجواء كانت مشحونة بالعنف. وأوضح: «شخص ما كان مسالماً جداً طوال حياته.. كان ليقول لك: يجب قتلهم جميعاً».

في صباح اليوم الذي بدأت فيه العملية، هرع سميح عبر القاهرة ليشهد ما يحدث. قال: «أردت فقط أن أرى الحقيقة».

تصاعد الدخان الأسود من حرق الإطارات. كان الدم في كل مكان - انسكب على الأرض وتلطخت به السيارات.

بحلول صباح اليوم التالي، كان قد أحصى أكثر من 152 جثة في إحدى المزارع.

دمرت الأفكار المختلفة حول ما حدث في ذلك اليوم بعض علاقات سميح. يقول: «لا يزال لدي أصدقاء لا أتحدث معهم... وهم لا يتحدثون معي».

وقال بعد رابعة: «كل شيء تغير في مصر». لكن لفترة طويلة، لم يكن يريد «أن يشعر أو يعتقد أن الفضاء العام يتقلص».

واصل سميح عمله في مجال حقوق الإنسان. ثم، في عام 2015، اتهم بتشغيل محطته الإذاعية عبر الإنترنت بشكل غير قانوني. وجرى تفتيش مكتبه، وتغريمه ونام في مركز شرطة محلي.

في العام التالي، أثناء عمله بوصفه مراقباً للانتخابات في أوغندا، تلقى معلومات من جهة اتصال في القاهرة: كان اسمه مدرجاً في قائمة المدافعين عن حقوق الإنسان المقرر اتهامهم بتلقي تمويل أجنبي غير قانوني.

عاد إلى المنزل لمدة 24 ساعة، وأعطى والدته توكيلاً رسمياً على جميع أصوله، وهرب إلى إستونيا، حيث كان يقيم.

وفي عام 2021، بعد سنوات من التقلب بين المشاريع التجارية، بدأ العمل مقدماً تلفزيونياً لقناة الشرق، وهي قناة تلفزيونية مقرها اسطنبول يملكها المعارض المصري أيمن نور، وهو أيضاً في المنفى.

إنه لا يعرف ما إذا كان سيتمكن من العودة إلى وطنه مرة أخرى.

أمل سليم، 54 سنة، وسارة علي، 34 سنة، عائلة تكلي

تنتقل الصحيفة إلى معاناة عائلة تكلي فتقول: في 14 أغسطس، غادر زوج أمل سليم، محمد علي، مدير مستشفى وعضو جماعة الإخوان المسلمين، منزله للذهاب إلى ميدان رابعة. أخبرها أنه يتعين عليه ضمان الإجلاء الآمن للنساء والأطفال. ناشدته للبقاء.

تتذكر أمل: «قال: إذا قدر لي أن أموت، فسوف أموت. وقال وداعاً وطلب مني أن أسامحه».

وبسبب خوفها من تقارير إطلاق النار، كانت تتصل بزوجها بانتظام للتأكد من أنه لا يزال على قيد الحياة. وكانت ابنتها الكبرى سارة علي، بالخارج في القاهرة – وتتواصل أيضاً مع والدها عبر الهاتف للإطمئنان عليه. كانا في منتصف مكالمة عندما انقطع الاتصال.

عندما اتصلت مرة أخرى، التقط رجل آخر الهاتف. وقال لها إن قنصاً أطلق النار على رأس محمد.

قالت: «لقد مات بينما كنت معه على الهاتف».

اتصلت سارة بشقيقها عمر، وهو يمارس صحافة المواطن وكان يوثق الفوضى في رابعة، وطلبت منه العثور على جثة والدهما. لكن لم يكن هناك ما يشير إليه في أي من العيادات المؤقتة. في حالة يائسة، نشرت سارة صورة والدها على الفيسبوك وطلبت معلومات إذا كان هناك من يعرف عنه شيئاً.

في اليوم التالي، اتصل بها رجل من رقم غير معروف وقال إن جثة والدها ملقاة في شارع جانبي. ذهبت سارة وعمر حيث وجههما الرجل.

قال عمر لوالدته عندما عادا إلى المنزل: «حملت والدي، ودفنته في القبر وملبسي ملطخة بدمه».

بعد أن مر بحالة اكتئاب عميق، طمأن عمر والدته بأنه سيساعد في إدارة الأسرة وتربية شقيقته الصغيرتين. كان يدرس ليصبح مهندساً.

ثم، قبل ثماني سنوات، بينما كان عمر في مطعم مع أصدقائه، اعتقلته قوات الأمن. اعتقدت الأسرة في البداية أنه اعتقل بالخطأ. ولكن مع مرور الوقت، أصبحوا يعتقدون أنه يعاقب على معتقدات والده السياسية.

وأدين في النهاية بـ «الكشف عن أسرار عسكرية» وحكم عليه بالسجن 25 عاماً دون أي فرصة للاستئناف.

أصيبت أمل لاحقاً بانهايار عصبي. لقد فقدت زوجها بالفعل.

«فجأة اختفى أيضاً. ما حدث دمرنا جميعاً».

في الصيف الماضي، بدأت سارة تعاني من الهلوسة والتشوش وفقدان القدرة على الحديث. أدخلت إلى مستشفى للأمراض النفسية وشُخصت إصابتهما باضطراب ما بعد الصدمة.

لا تزال سارة حزينة على والدها. في بعض الأحيان، يتسلل الضيق إلى صدرها. تقول إنه كان العضو الوحيد في الأسرة الذي ينتمي إلى جماعة الإخوان المسلمين، لكنهم جميعاً تحملوا التكلفة.

وقالت «لا يوجد مبرر لما حدث له. لكن لماذا أدفع ثمن ذلك؟ لماذا يقضي أخي كل هذه السنوات في السجن؟»

لينا عطالله، 40، صحفية

تتابع الصحيفة: تتسلل ذكريات رابعة إلى لينا عطالله عندما لا تتوقعها على الأقل - ضغط مفاجئ في بطنها، أو وميض في ذهنها وهي تحاول النوم. كانت تبلغ من العمر آنذاك 30 عاماً، وهي صحفية شاركت في تأسيس مؤسسة مدى مصر الإخبارية المستقلة. كانت تكتب التقارير من اعتصام ميدان رابعة في ذلك الصيف. استيقظت في وقت مبكر من يوم 14 أغسطس وهرعت إلى موقع الأحداث مع زميل لها.

لم يكن لديهم معدات واقية. ومع تقدم قوات الأمن في الميدان، حُشِر الاثنان وسط حشد بالقرب من مستشفى ميداني. وتذكر لينا الجثث، ورجل يحمل كومة من بطاقات الهوية الخاصة بالموتى، وأشخاص يحاولون إنقاذ بعضهم البعض.

مع هطول الرصاص، رأوا مخرجاً. لم يكن هناك وقت للتفكير. أمسكا بأيديهما وركضا.

وقالت لينا: «اللغة لا تسعفني لنقل هول هذا الحدث».

في الأشهر التي تلت ذلك، استغرقت لينا في عملها «حتى لا يتملكها اليأس». حتى ذلك الحين، فهدت لينا أن رابعة كانت «بداية لشيء مروع للغاية».

سُجِن بعض أقرب أصدقائها، بمن فيهم نشطاء وصحفيون. ومن بينهم علاء عبد الفتاح، الذي أمضى معظم العقد الماضي خلف القضبان بتهم تقول جماعات حقوقية إنها باطلة. فر أصدقاء آخرون من البلاد أو ماتوا منتحرين.

في عام 2017، حظرت السلطات المصرية موقع مدى مصر، لكنه لا يزال يعمل. ويجد القراء في مصر طرقاً للالتفاف على الحظر.

مو، 58 عاماً، رجل أعمال

تضيف الصحيفة أنه لا يزال بإمكان مو أن يتذكر بالضبط كيف كان المتظاهرون يتساقطون أمامه.

في البداية، الشاب المختبئ خلف شجرة، الذي أطلق شهقة وانهار. ويتذكر قائلاً: «عندما فحصته كانت هناك رصاصة في قلبه. لقد أصيب برصاص قناص».

ثم أطلق النار على مساعد سائق سيارة الإسعاف وهو يرتدي زيه الطبي. «انفجرت رأسه إلى نصفين». وكان زميله يصرخ ويبكي.

في وقت لاحق، أطلق النار على رجل بينما كان الناجون يحاولون إخلاء المكان، وكانت أذرعهم فوق أكتاف بعضهم البعض. قال: «كان علينا أن نعبر من فوقه».

وصل مو - رجل أعمال بارز - إلى الاعتصام في ذلك اليوم حوالي الساعة 6:30 صباحاً، على حد قوله، لم يكن ينتمي إلى جماعة الإخوان المسلمين، لكنه كان هناك للاحتجاج على ما اعتبره استيلاء عسكري جائر.

اعتقل مو وأجبر على تسليم بطاقة هويته قبل مغادرة الميدان.

في حالة صدمة، وخوفاً من أن تأتي السلطات لاعتقاله، فر إلى الولايات المتحدة بعد ثلاثة أيام. لم يعد إلى وطنه منذ ذلك الحين.

تحدث شريطة تعريفه باسم مستعار، قلقاً على أمن اتصالاته في مصر.

في السنوات التي تلت ذلك، تعرضت أعماله في مصر للهجوم والحرق. وتعرضت عائلته لمضايقات من الحكومة حتى وافق على التخلي عن أصوله المتبقية.

اضطر مو، والذي كان ذات يوم من بين النخبة في مصر، لبدء من الصفر تقريباً في المنفى. قال: «لقد تخليت عن كل شيء».

وهو يرى رابعة على أنها «بداية محو كل ما يتعلق بعام 2011»، عندما كان المصريون يحدوهم الأمل في مجتمع أكثر حرية. وقال إن رابعة كانت فرصة للجيش «لاستعراض عضلاته» وإرسال رسالة واضحة: «لن يتمتع أحد بحرية التفكير أو الاحتجاج بعد الآن».